فكرة الخير عند الفارابي

الدكتور جميل صليبا

١ ـــ مقدمة عامة

ما أظنّ أن أحداً من علماء زماننا وصف الفارابي بأحسن مما وصفه به (دي بور) في قوله : إن هذا الفيلسوف كان « يعيش في عالم العقل ابتغاء الخلود » وإنه « كان ملكاً في عالم العقل » (دي بور ، تاريخ الفلسفة في الإسلام ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ١٥٤ ، راجع أيضاً : الدكتور إبراهيم مدكور : (La place d, Al Farabi p.220) وهذا القول يتفق مع أقوال معظم المؤرخين الذين ذكروا الفارابي في كتبهم ، فوصفوه بقولهم : إنه كان يعتزل الناس حتى يفرغ للتأمل ، وإنه كان في زهده وتصوفه وإيمانه بالحق والكمال والخير موضع إعجاب أهل زمانه ، فلم يحفل بتقلبات السياسة ، ولا حرص على تبوّء منصب من مناصب الدولة ، بل آثر التخلي عن أسباب الدنيا وشهواتها ، والبعد عن منازعات الفرق والمذاهب . وليس أدلّ على ذلك من انكبابه على تصنيف الكتب ، وانقطاعه إلى التأمل كل أيام حياته ، وتفضيله الحياة المثالية الملائمة لراحة العقل على الحياة الواقعية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المضطربة ، حتى لقد قيل إنه كان مدة إقامته في دمشق لا يُرى إلاّ عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض يؤلف هناك كتبه ، وقيل أيضاً إنه كان ناطوراً في أحد بساتين دمشق ، وإنه كان يسهر الليل للمطالعة والتأليف مستضيئاً بقناديل الحراس . لقد كان هذا الفيلسوف عزيز النفس ، محباً للكرامة ، قانعاً بالقليل من المال ، قيل إن سيف الدولة أجرى عليه رزقاً واسعاً من بيت المال فردّه واقتصر على أربعة دراهم منه ينفقها فيما يحتاج إليه من ضروري معاشه . وكان الذي عظّمه في عين سيف الدولة زهده ، وموضعه من العلم ، ودأبه في العمل المتواصل ، وصبره على النظر والبحث حتى أربى على جميع معاصريه في الإحاطة بعلوم زمانه . وصفه ابن سبعين بقوله : « إنه كان أفهم فلاسفة الإسلام وأذكرهم للعلوم القديمة ، وهو الفيلسوف فيها لا غير » ووصفه ابن خلكان بقوله : إنه أكبر فلاسفة المسلمين على الاطلاق . لم يقتصر تأثيره على يحيى بن عدي وأبي سليمان السجستاني فحسب ، بل امتدّ إلى جميع فلاسفة الإسلام الذين جاؤوا بعده ، من ابن سينا إلى ابن رشد . ولا غرو فقد كان الفارابي متفانياً في عالم الروح ، يعظم العقل ، ويحنّ إلى الفكر . إن الوجود الحق عنده هو الوجود العقلي ، والله في مذهبه عقل محض لا تخالطه المادة ، والنفس الانسانية لا تبلغ الكمال والسعادة إلا إذا بلغت مرتبة العقل المستفاد . وأهم ما يمتاز به من الفضائل الفكرية إيمانه بالخير والكمال ، واعتقاده ان الخير في الوجود غالب على الشر ، وحرصه على التوفيق بين حياته المثالية وحياته الواقعية بخلاف ابن سينا الذي كان يعظّم العقل ، ويحنّ إلى الكمال والخلود ، ويوحّد الخير والوجود ، إلاّ أنه كان في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حياته الواقعية كثير القلق والاضطراب ، مخلطاً في الشهوات ، يغالب الزمان ، ويطلب كل مرتبة من مراتب الرفعة .

ولست أريد الآن أن أتحدث عن فلسفة الفارابي العامة ، ولا عن إلهياته وطبيعياته ، وإنما أريد أن أتحدث عن مبدأ واحد من مبادىء فلسفته ، وهو مبدأ الخير الذي يمكن الاطلال منه على سائر آرائه الإلهية والطبيعية والاجتماعية والسياسية . فالفارابي لم يؤلف كتاباً واحداً على مبدأ الخير ، ولا خصّ هذا المبدأ ببحث منفرد في كتبه ، ولكننا إذا تصفحنا كتبه التي وصلت إلينا ، ولا سيما كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ، وكتاب السياسات المدنية ، ورسالة تحصيل السعادة ، ورسالة السياسة وغيرها ، رأينا أن هذا المبدأ هو الأساس الذي يحوم حوله في كلامه على الله والعالم والعقل والنفس والفرد والمجتمع ، فما هو مبدأ الخير عند الفارابي ، وما هو أثره في فلسفته الإلهية والطبيعية والأخلاقية والاجتماعية ؟

٢ — معنى الخير على العموم

إن معنى الخير هو المبدأ الذي نستند إليه في الحكم على قيمة أفعالنا ، لا بل هو الأساس الذي نبني عليه قواعد الأخلاق . ولهذا المعنى عند معظم الفلاسفة خطورة بالغة ، فبعضهم يطلق الخير على الوجود ، والشرّ على العدم ، وبعضهم يفرق بين الخير بالذات والخير بالعرض ، أو بين الخير المطلق والخير النسبي ، فيقول : إن الخير المطلق هو الوجود الذي ليس لذاته حد ، ولا لكماله نهاية . لأنه خير بذاته ولذاته ، فهو إذن غاية نهائية مقصودة من جميع الناس . وجميع الفضائل الإنسانية ، من فضائل فكرية أو خلقية أو اجتماعية ، ليست سوى مظهر من مظاهره . أما الخير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النسبي فهو خير لا لأجل ذاته ، بل لأجل غيره ، وهو متعلق بالعناصر التجريبية والظروف الطبيعية المحيطة به .

فمن قال بالخير المطلق رأى كأفلاطون أن للعالم نظاماً مشتملاً على تناسب هندسي دقيق . وأن الخير إنما هو تحقيق هذا التناسب في حياة الفرد والمجتمع . إن صورة الخير عند أفلاطون هي الحد الأقصى لكمال العالم العقلي والخير الأعلى عنده هو الله ، وهو مبدأ جميع المثل ، وقوام جميع الفضائل وأساس النظام الاجتماعي . ولولا ذلك لما كان للوجود غاية ، ولا للثواب والعقاب معنى .

ومن قال بالخير النسبي رأى أن الخير كثير التبدل والتغير ، وأن الفضائل التي تعبر عنه تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وتتبدل بتبدل الوسائل والغايات ، فمن هؤلاء من زعم أن الخير في اللذة ، ومنهم من ردّه إلى المنفعة ، ومنهم من ارجعه إلى مبـــدأ الحياة ، أو مبدأ العاطفة أو مبدأ القوة . ولكن جميع مذاهب الخير النسبي تتفق في أمر واحد وهو القول إن الخيرات كثيرة ، وهي تختلف باختلاف الظروف والأوقات ، فما كان خيراً لواحدٍ كان شراً للآخر ، وما كان خيراً في مكان معين أو زمان معين كان شراً في مكان آخر ، أو زمان آخر ، بخلاف مذاهب الخير المطلق التي تجعل الخير واحداً لجميع الناس على اختلاف شرائعهم ومللهم وديانتهم ، لأنه الغاية الأخيرة التي ترتقي اليها جميع الخيرات .

ومن القدماء من قال : إن السعادة ، وهي خيرٌ ما ، لا تكون إلا في النفس وحدها ، ومنهم من قال : إن سعادة النفس لا تكون كاملة إلا إذا اقترنت بها سعادة البدن ، ومنهم من قال : إن السعادة ليست خيراً فحسب ، وإنما هي تمام الخيرات وغايتها وأفضلها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن قبيل ذلك قول بعضهم : إن الخيرات منها ما هي شريفة ، ومنها ما هي ممدوحة . وفيها ما هي بالقوة كذلك ، ومنها ما هي نافعة .

وقول الآخر : الخيرات منها ما هي غايات ، ومنها ما ليست بغايات ومنها ما يؤثر لذاته ، ومنها ما يؤثر لأجل غيره ، ومنها ما هو خير على الاطلاق ، ومنها ما هو خير عند الضرورة والاتفاق ، ومنها ما هو خير لجميع الناس ، ومن جميع الوجوه ، وفي جميع الأوقات ، ومنها ما ليس كذلك .

فهذا الذي أجملناه هنا من آراء القدماء يمكن أن يعدّ مقدمة أو مدخلاً لما نحن ذاكرون من آراء الفارابي . (مسكويه ، تهذيب الأخلاق . المقالة الثالثة ص ٧٥ ١٠٤ من طبعة بيروت ١٩٦٦ بتحقيق الدكتور قسطنطين زريق) .

٣ — معنى الخير عند الفارابي

يقول الفارابي : إن الخير بالحقيقة هو كمال الوجود (الفارابي ، التعليقات ، ص ١١ من طبعة حيدر آباد الدكن ١٣٤٦ هـ) وإن السعادة هي الخير على الاطلاق (الفارابي ، السياسات المدنية ص ٤٢) ، أما الشر فهو عدم كمال الوجود . والمقصود بكمال الوجود عنده حصول الشيء على كل ما يتمّ به وجوده . إن لكل موجود كما يقول أرسطو فعلاً يخصه ، وكمال الوجود أو خيره هو في تمام تأدية هذا الفعل . فكأن خيرية الوجود كمال الوجود ، وكأن الموجود لا يبلغ غايته إلا إذا حصل على جميع الكمالات الخاصة بنوعه . أضف إلى ذلك أن الخير عند الفارابي قسمان : أحدهما خير لأجل ذاته ، وهو الخير المطلق أو الخير الأعلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الواجب الوجود ، والآخر خير لا لأجل ذاته بل لأجل نفعه في بلوغ السعادة (السياسات المدنية ، ص ٤٢) فكل ما كان نافعاً في بلوغ السعادة فهو خير وكل ما عاق عن بلوغ السعادة فهو شر (المصدر نفسه ص ٤٢) ، وإذا كان الخير لأجل ذاته خيراً مطلقاً فإن الخير النافع لا يمكن أن يكون إلا نسبياً لاختلافه باختلاف الظروف والأوقات .

وقد بين الفارابي في « التنبيه على سبيل السعادة » ان السعادة هي الغاية القصوى التي نشتاقها ونسعى للحصول عليها ، وكل ما يشتاقه الإنسان ويسعى للحصول عليه فهو خير ، وهذا الخير مبدأ جميع الفضائل التي توصل إلى السعادة كالفضائل النظرية ، والفضائل الفكرية ، والفضائل الخلقية . وهذه الفضائل قسمان : قسم كائن بالطبع ، وقسم كائن بالإرادة ، مثال ذلك أن من الفضائل النظرية ما يحصل للإنسان من أول أمره من حيث لا يشعر ولا يدري كيف حصل ومن أين حصل ، مثل العلم بالمبادىء الأولية ، فهو علم بديهي أو فطري ، ومنها ما يحصل عن تأمل وفحص واستنباط أو عن كسب وتعلم ، وكذلك الفضائل الفكرية والخلقية فهي لا تحصل بالطبع إلا لذوي الطبائع الفائقة ، أما أصحاب الطبائع الضعيفة فسبيل حصولها لهم تكرارها بالفعل وممارستها مراراً كثيرة ، وفي أوقات متقاربة ، حتى تصبح عادات راسخة .

وخلاصة هذا الكلام أن هناك خيراً مطلقاً مطلوباً لذاته ، وهو الواجب الوجود ، والغاية التي ينتهي إليها كل شيء « وأن إلى ربك المنتهى » (قرآن كريم ٥٣/٤٢ التعليقات ، ص ٩) ، وخيراً إضافياً أو نسبياً مطلوباً لأجل غيره ، وهو الذي يحصل للإنسان بتكرار الأفعال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النافعة والجميلة . فالخير المطلق هو الخير الكلي ، أو الخير المحض ، الذي يؤثر لأجل ذاته ، ويؤثر غيره لأجله ، وهو نهاية كمال الخيرات الجزئية . والخير الإضافي هو الخير الجزئي الذي يؤثر لا لأجل ذاته ، بل لنفعه في بلوغ السعادة . والفرق بين الخير والشر أن الخير يطلق على الأفعال النافعة في بلوغ السعادة ، وهي الأفعال الجميلة . أما الشر فيطلق على الأفعال التي تعوق عن السعادة ، وهي الأفعال القبيحة . قال الفارابي : « القوى والملكات والأفعال الارادية التي إذا حصلت في الانسان عاقت عن حصول الغرض المقصود بوجود الإنسان في العالم هي الشرور الانسانية ، والقوى والملكات والأفعال التي إذا حصلت في الانسان كان انساناً (مؤهلاً) لحصول الغرض المقصود بوجود الانسان في العالم هي الخيرات الإنسانية ، فهذا حدّ الخير والشـــر الانساني » (في جواب مسائل سئل عنها ، المسألة ٣٠) ، ثم أضاف إلى ذلك قوله إن أرسطو قد عرف الخير والشر في كتاب الخطابة فقال : « الخير هو الذي يؤثر لأجل ذاته ، وأنه هو الذي يتشوقه الناس من ذوي الفهم والحس ، والشر حدّه عكس ذلك » . (المصدر نفسه ، المسألة ٣٠) . أما السعادة وهي الخير المطلوب لذاته فسبيل بلوغها كما يقول الفارابي : « أن تصير نفس الانسان من الكمال في الوجود إلى حيث لا تحتاج في قوامها إلى مادة ، وذلك أن تصير في جملة الأشياء البريئة عن الأجسام ، وفي جملة الجواهر المفارقة للمواد ، وأن تبقى على تلك الحال دائماً وأبداً ، إلا أن رتبتها تكون دون رتبة العقل الفعال » المدينة الفاضلة ص ٦٦) ولا تبلغ النفس هذه الرتبة إلاّ بأفعال إرادية بعضها فكري وبعضها بدني ، وليس كل فعل إرادي بموصلٍ إلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السعادة لأن هناك أفعالاً إرادية لا توصل إليها . وقد قيل إن الانسان لا يستكمل ذاته إلا بحصول المعقولات في نفسه ، ولا يبلغ السعادة إلا إذا جعل أفعاله إلهية . وكل فعل إلهي فهو خير محض ، وكل خير محض فهو مطلوب لأجل ذاته .

٤ ـــ الخير بالطبع والخير الإرادي

وأول أمر يجب التنبيه عليه بعد هذه المقدمات أن الخير عند الفارابي قد يكون بالطبع أو يكون بالإرادة ، وكذلك الشرّ . قال الفارابي : « إن الخير النافع في بلوغ السعادة قد يكون شيئاً مما هو موجود بالطبع ، وقد يكون ذلك بإرادة . والشر هو الذي يعوق عن السعادة ، وقد يكون شيئاً مما هو موجود بالطبع ، وقد يكون بإرادة » (كتاب السياسات المدنية ص ٤٢ من طبعة حيدر آباد الدكن ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٤٦ هـ) .

١ ـ أما **الخير الذي بالطبع** فهو الخير الذي يكون في الجبلة التي خلق عليها الإنسان ، أي في جميع ما يتصف به الإنسان من استعدادات طبيعية محمودة . وهذه الاستعدادات ناشئة عن تأثير الأجسام السماوية التي « تعطي كل ما في طباع المادة أن تقبله » (السياسات المدنية ، ص ٤٣) سواء أكان ذلك التأثير ملائماً لغرض العقل الفعال أم مضاداً له ، فما كان ملائماً لغرض العقل الفعال كان خيراً بالطبع ، وما كان عائقاً عن غرضه كان شراً بالطبع .

٢ ـ وأما **الخير الإرادي** فهو الذي يحدث عن الإنسان عندما تكون ارادته مقيدة بعقله ، لأن العقل هو الهادي إلى الخير ، وهو أشبه شيء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بلجام يكبح جماح الإرادة ، ويمنعها من الوقوع في مهاوي الزلل . الإرادة كما يقول الفارابي هي الشوق إلى الفعل ، ولهذا الشوق ثلاثة أنواع ، فإما أن يكون شوقاً عن احساس ، وأما أن يكون شوقاً عن تخيّل ، وإما أن يكون شوقاً عن نطق . « وهذا الشوق الأخير هو المخصوص باسم الاختيار ، وهو خاص بالانسان » (السياسات المدنية ص ٤٢ ، والمدينة الفاضلة ص ٦٥ من طبعة القاهرة) . أما الشوق عن الاحساس ، والشوق عن التخيل فهما مشتركان بين الانسان والحيوان ، وهما لا يهديان إلى طريق الخير دائماً . ومعنى ذلك أن الفاعل لا يوصف بالقدرة على الاختيار إلا إذا كان فعله الإرادي صادراً عن روية وعقل ، لأن العقل هو الذي يفرق بين الخير والشر ، وبين الجميل والقبيح ، به تنال سعادة الدنيا والآخرة ، وعليه مدار الأمر في الحكم على قيم الأشياء ، لولاه لما سئل الانسان عما يفعل ، ولا وجب جزاؤه على أعماله خيرها وشرها . وهذا الرأي قريب من رأي (الحسن البصري) الذي قال : إن الانسان قادر على الاختيار في الأفعال من خير أو شر ، وقريب أيضاً من رأي (واصل بن عطاء) ، مؤسس فرقة المعتزلة الذي قال : إن الانسان هو الفاعل للخير والشر والإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، وهو المجازى على فعله ، والله تعالى أقدره على ذلك كله . فهناك إذن خير يعرفه الانسان بعقله ، وينزع إليه بإرادته ، وهو لا يحدث عنه إلا إذا كان له تأمل وروية وفكر وقدرة على الاستنباط ونزوع إلى ما يفعله وشوق إليه وإلى بعض ما يستنبطه .

وفي كلام الفارابي على قوى النفس الانسانية إشارات واضحة إلى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كيفية حدوث الخير الارادي عن الانسان . فقد بين لنا في مواضع مختلفة من كتبه أن للنفس الانسانية قوة غاذية ، وقوة حساسية ، وقوة متخيلة ، وقوة ناطقة مقرونة جميعها بالقوة النزوعية ، ولكل قوة من هذه القوى عمل يخصها ، فالغاذية تخدم البدن ، والحساسة والمتخيلة تخدمان البدن والناطقة معاً . أما الناطقة فهي إما عملية ، وإما نظرية ، فالعملية تخدم النظرية ، والنظرية لا تخدم شيئاً آخر ، بل وجدت في الانسان ليتوصل بها إلى السعادة . إن الغاذية والحساسة والمتخيلة لا تخدم البدن إلا من أجل خدمة القوة الناطقة ، وجميع هذه القوى لاتقوم بعملها ولا توفي خدمتها إلا بمعونة القوة النزوعية .

وإذا سئلنا الآن كيف يحدث الخير الارادي عن الانسان قلنا إنه لا يحدث عنه إلا إذا كان شوقه إلى الفعل خاضعاً لقوته الناطقة ، فإذا أراد أن يحدث الخير عنه وجب عليه أن يدرك السعادة بعقله ، وأن يتخذها غاية له ، وأن يتشوقها بإرادته ، وأن يستنبط بطريق الروية والفكر ما ينبغي له أن يفعله ، وأن يقدم بعد ذلك على تنفيذ هذا الفعل بآلات القوة النزوعية . فالخير كل الخير إذن في تقيد الإرادة بالفعل والسعادة كل السعادة في سيطرة الناطقة النظرية على جميع الأفعال والقوى الانسانية .

تلك هي شروط حدوث الخير الارادي عن الانسان ، أما الخير بالطبع فقد يحدث عن أصحاب الطبائع الفائقة بتأثير ما جبلوا عليه من الميول والنزعات والاستعدادات النفسية الملائمة لغرض العقل الفعال .

٣ – **وأما الشر الارادي** : وهو ضد الخير الارادي ، فإنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لايحدث عن الانسان إلا إذا تغلب هواه على عقله ، فقد تكون قوته الحساسة وقوته المتخيلة عديمتي الشعور بالسعادة ، أو تكون قوته الناطقة محتاجة في شعورها بالسعادة إلى الكثير من السعي والجهد ، فإذا لم يكن له روية صحيحة ترشده إلى معرفة الخير لم يسلك طريقه . قال الفارابي : ومتى توانى الانسان « في تكميل الجزء الناطق النظري من نفسه ، فلم يشعر بالسعادة ، فسارع نحوها ونصب الغاية التي يقصدها في حياته شيئاً آخر سوى السعادة ، من نافع أو لذيذ ... واشتاقها بالقوة النزوعية ، وروّى في استنباط ما ينال به تلك الغاية بالناطقة العملية ، وفعل تلك الأشياء التي استنبطها بآلات القوة النزوعية ، وساعدته المتخيلة والحساسة على ذلك ، كان الذي يحدث عنه شراً كله » (السياسات المدنية ، ص ٤٤) .

وجملة القول أن الانسان إذا عرف السعادة وشعر بها وتشوقها وقيد إرادته بعقله في استنباط الأفعال المؤدية إليها ، فإن الذي يحدث عنه يكون خيراً كله ، وإذا لم يعرف السعادة ولم يشعر بها ولم يتشوقها ولم يجعلها غايته بل جعل غايته اللذة أو المنفعة أو غيرها من الأشياء المشابهة لذلك ، فإن الذي يحدث عنه يكون شراً كله ، وحال الذي يعرف السعادة ولا يتشوقها ، أو يتشوقها تشوقاً ضعيفاً ، كحال الذي لايعرف السعادة ولا يتشوقها . والعالم الذي يدرك الخير ولا يعمل به كالجاهل الذي لا يدركه ولا يشعر بضرورة العمل به . إن بلوغ السعادة هو الغاية القصوى للحياة الانسانية . والأفعال التي تنفع في بلوغ السعادة هي الأفعال الجميلة ، والأفعال التي تعوق عنها هي الأفعال القبيحة ، ونسبة الأفعال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجميلة إلى الخير كنسبة الأفعال القبيحة إلى الشر ، والعقل هو الحاكم في أمور الخير والشر ، والجمال والقبح ، والسعادة والشقاء ، وإذا كانت الأفعال الجميلة تكسب صاحبها هيئات نفسية حسنة فإن الأفعال القبيحة تكسب صاحبها هيئات نفسية سيئة ، وإذا أصبحت هذه الهيئات السيئة عادات راسخة عاقت صاحبها عن بلوغ الكمال وجعلته أشبه شيء بالمريض الذي يستلذ الأشياء القبيحة أو الرديئة ويتأذى بالأشياء الجميلة الرائعة .

٥ ـ تفاضل أشخاص الانسان في القدرة على بلوغ السعادة

وسبب هذا التفاضل أن قدرة أشخاص الانسان على قبول المعقولات متفاوتة ، فمنهم من لايقبل بالطبع شيئاً من المعقولات الأول ، ومنهم من يقبلها على غير جهتها ، ومنهم من يقبلها على جهتها . وهؤلاء الذين يقبلون المعقولات الأول على جهتها هم أصحاب الفطر السليمة الذين يستطيعون إدراك الخير وبلوغ السعادة من تلقاء أنفسهم ، بخلاف الذين لايقبلون المعقولات بالطبع ، أو لايقبلونها على جهتها ، فإن فطرهم الناقصة أو المريضة تعوقهم عن بلوغ السعادة .

على أن أصحاب الفطر السليمة وإن اشتركوا جميعاً في قبول معقولات واحدة فإنهم متفاوتون في الاستعدادات الخاصة بكل واحد أو كل طائفة منهم ، فيكون فيهم من هو فائق الطبع قادر على قبول معقولات لايشاركه فيها أحد ، أو يكون فيهم من هو أقدر على الاستنباط من غيره . وقد يتساوى اثنان في القدرة على استنباط أشياء معينة ، ويكون أحدهما أسرع استنباطاً والآخر أبطأ ، وقد يتساوى اثنان في سرعة الاستنباط ، ويكون أحدهما أقدر على الارشاد والتعليم ، وإذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان في أشخاص الانسان من هم أخيار بالطبع أو أشرار بالطبع ، فإن الأخيار بالطبع قد ينقلبون إلى الشر بفساد تربيتهم ، كما أن الأشرار بالطبع قد ينقلبون إلى الخير بجودة الارشاد والتعليم . ونحن نعلم أن من كان مطبوعاً على الشيء سهل عليه فعله إلا إذا حركه إلى ضد ذلك الشيء سببٌ خارجي ، وأن من لم يكن مطبوعاً على الشيء صعب عليه فعله إلا إذا ثبّته له التكرار وسهلته العادة . وجميع أشخاص الانسان على اختلاف قواهم واستعداداتهم محتاجون إلى معلم أو مرشد يهذبهم ويؤدبهم. والغرض من هذا التهذيب أو التأديب تنمية ما في نفوسهم من بذور الخير واستئصال ما في طبائعهم من بذور الشر ، فإذا أهملوا ولم يؤدبوا وتمادى بهم الزمان على ذلك ، تبددت قواهم ، وجفّت استعداداتهم ، وأظلمت نفوسهم . إن أهل الطبائع المتساوية متفاوتون في تأدبهم ، كما أن المتأدبين على التساوي يتفاوتون في القدرة على الاستنباط . وأفضل الناس وأقربهم إلى الكمال والسعادة من كان تام العقل ، جيد الفهم ، سريع الاستنباط، قادراً على كبح جماح نفسه بعقله ، حسن القول ، قادراً على الارشاد والتعليم ، فالقادر على الاستنباط أفضل ممن ليس له قدرة على الاستنباط ، والقادر على الاستنباط الكثير أفضل ممن لا يستطيع أن يستنبط إلا القليل ، ومن كان له قدرة على جودة الارشاد والتعليم كان أفضل ممن ليس له قدرة على ذلك ، وأصحاب الطبائع الضعيفة إذا تأدبوا بشيء من الأشياء كانوا أفضل من أصحاب الطبائع الفائقة الذين لم يتأدبوا بشيء ، هذا الذي أشار إليه (ابن سينا) في قوله : إن البلاهة أدنى إلى الخلاص من الفطانة البتراء (ابن سينا : الاشارات ، ص ١٩٥ من طبعة ليدن ١٨٩٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومعنى ذلك كله أن أكثر الناس خيراً وسعادة من كان ذا استعداد قوي لقبول المعقولات على جهتها ، تام التأدب ، جيد الاستنباط ، قادراً على الارشاد والتعليم ، وإذا كان المقصود بوجود الانسان أن يبلغ السعادة فإنه يحتاج في بلوغها إلى أن يعرفها وإلى أن يعرف في الوقت نفسه ما ينبغي له أن يفعله من الأمور الموصلة إليها ، فلا يكفي إذن لبلوغ السعادة أن تعرفها بعقلك ، وأن تجعلها غايتك ، وأن تكشف بقوتك الناطقة النظرية عن الطرق والوسائل المؤدية إليها ، بل ينبغي لك أن تجعل علمك النظري بالسعادة متبوعاً بتنفيذ مايتصل بهذا العلم من الفضائل العملية ، فالانسان لا يبلغ السعادة التامة إلا إذا أكمل الجزء النظري والجزء العملي من نفسه ، هذا ما أشار إليه (مسكويه) في تهذيب الأخلاق بقوله (ص ٢٠) إن هذين الجزأين لا يتم أحدهما إلا بالآخر ، فالعلم كما قال مبدأ ، والعمل تمام ، والمبدأ بلا تمام يكون ضائعاً ، كما إن التمام بلا مبدأ يكون مستحيلاً .

وجملة القول أن أصحاب الطبائع الفائقة يدركون الخير من تلقاء أنفسهم ، أما سائر أشخاص الانسان فإنهم يحتاجون في إدراكه إلى معلم يرشدهم إليه ، فبعض الناس يحتاجون إلى إرشاد يسير ، وبعضهم يحتاجون إلى إرشاد كثير ، وليس في قوة كل انسان أن يرشد غيره إلى الخير ، ولا أن يحمله على فعله بنفسه ، فمن كان قادراً على إرشاد غيره إلى الخير أو حمله عليه أو استعماله فيه كان رئيساً على الذي لايمكنه أن يفعل ذلك بنفسه ، ومن لم يكن قادراً على النهوض بغيره نحو الخير ولا قادراً على أن يستعمله فيه بل كان قادراً على فعل ما أرشد إليه فقط لم يكن رئيساً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٦ – اجتماع خصال الخير في رئيس المدنية الفاضلة

لا نريد الآن أن نتكلم على جميع خصال الخير التي يجب أن يتحلى بها رئيس المدينة الفاضلة حتى يكون قادراً على تنظيم مدينته وإرشاد أهلها وإسعادهم ، وإن للبحث في هذه الخصال مجالاً آخر غير هذا ، ولكن الأمر الذي نريد أن نؤكده هنا هو القول : إن مرتبة الرئيس أعلى المراتب وخصاله أفضل الخصال ، ذكر منها الفارابي في كتاب المدنية الفاضلة اثنتي عشرة خصلة منها صحة العقل ، وجودة الفهم والتصور ، وقوة التخيل ، وكرم النفس ، وحب العدل ، واحتقار الشهوات ، وجودة القول ، وحسن الارشاد إلى الخير والسعادة . فمن هذه الخصال ما هي طبيعية ، ومنها ما هي إرادية ، ورئيس المدينة الفاضلة الذي تجتمع فيه خصال الخير كلها لا يحتاج إلى إنسان آخر يرشده ويعلمه ، إنه فيلسوف حكيم ، أو نبي مرسل يرأس جميع الناس ولا يرأسه أحد ، وكيف يحتاج إلى من يرأسه ، وهو علة كل شيء وغاية كل شيء ، جمع الفضائل الفلسفية إلى الفضائل الانسانية ؛ وصحة العقل إلى إلهام القلب ، إذا وجد في أمة كان سبب سعادتها ، وإذا غاب عنها اضطربت حياتها . وتختلف سعادة كل فرد من أفراد المدينة باختلاف قربه من الرئيس أو بعده عنه ، فكلما كان إليه أقرب كان أفضل وأسعد ، كالمستضيء بنور المصباح فإنه كلما ازداد عنه بعداً ازداد من الظلام الحالك قرباً .

وفي الحق أن الخير الخاص بكل واحد من الناس متناسب مع المرتبة التي يستحقها . فأكثر الخيرات وأشرفها خيرات رئيس المدينة ، وأقلها وأخسها خيرات الذين يكونون في أدنى المراتب ، ومع أن المجتمع الفاضل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يوجب أن يكون ما يحصل عليه كل فرد متناسباً مع سعيه واستئهاله ، فإن المساواة العددية بين ما يحصل عليه هذا وما يحصل عليه ذاك ليست عدلاً ، إنما العدل أن تكون نسبة كل واحـــد من الناس إلى قسطه من الخير والكرامة كنسبة كل من كان في مثل مرتبته إلى مثل قسطه ، فلا غرو إذا كان قسط أفراد المراتب العليا من الخير أعظم من قسط أفراد المراتب الدنيا . إن المجتمع الفاضل أشبه شيء بهرم رتبت طبقاته المختلفة بعضها فوق بعض ، فرئيس هذا المجتمع يحتل قمة الهرم ، وأصحاب المراتب الدنيا يحتلون قاعدته ، وبين قمة الهرم وقاعدته مراتب تبعد عن مرتبة الرئيس قليلاً ، ومراتب تبعد عنها كثيراً حتى تصل إلى مراتب الخدمة البعيدة عن كل شرف رئاسي .

قد يظن أن غاية الرئيس في هذا المجتمع الطبقي إسعاد الفرد ورعاية مصالحه ، والسماح له بتدبير شؤونه بنفسه لا رعاية مصلحة الكل من جهة ما هو كل ، ولا تقديم المصلحة العامة على المصالح الخاصة . والحق عن ذلك بعيد ، لأن عناية الفارابي بسعادة المجتمع من جهة ما هو كل لا تقل عن عنايته بسعادة الفرد من جهة ما هو جزء ، بل الفضائل الفردية عنده لا تمثل إلا جانباً واحداً من السعادة ، ولا يبلغ الفرد غايته إلا إذا جاوز ذاته وتعاون مع أبناء جنسه على الأشياء التي تضمن سعادته وسعادتهم ، وهذه الحاجة إلى التعاون تدل على أن الانسان لا يستطيع أن يعيش في القفر وحده ، ولا أن يحبس نفسه في قفص ضيق لا يطل منه على العالم . إنه مضطر إلى توسيع أفق حياته بالتعاون ، والحب ، والجود ، والعدل ، وإلى التوفيق بين مصلحته ومصلحة الجماعة . إن خير الجزء في خير الكل ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كما أن خير الكل في خير الأجزاء ، ولا فرق بين الفرد والجماعة إلا في الكمية ، بل الخير لا يكون خيراً إلا إذا انتفعت به جملة المدينة وكل واحد من أفرادها ، وإذا تميزت الطوائف أو المدن أو الأمم بعضها عن بعض بأحد أنواع الارتباط كان تميزها شبيهاً بتميز الأفراد ، فإنه لا فرق بين أن يتميز كل واحد عن كل واحد أو تتميز طائفة عن طائفة .

وقد بينا في موضع آخر (ر : من أفلاطون إلى ابن سينا ، ص ٦٧ ٦٨ من الطبعة الرابعة) أن تعاون أعضاء المدينة عند الفارابي شبيه بتعاون أعضاء البدن ، والدليل على ذلك قوله : « وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى ، فيها عضو واحد رئيس وهو القلب وأعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس ، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله ابتغاءً لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس وأعضاء أخر فيها قوى تفعل أفعالها على حسب أغراض هذه التي ليس بينها وبين لرئيس واسطة ، فهذه في المرتبة الثانية ، وأعضاء أخر تفعل الأفعال على حسب غرض هؤلاء الذين في هذه المرتبة الثانية ، ثم هكذا إلى أن تنتهي إلى أعضاء تخدم ولا ترؤس أصلا . وكذلك المدينة أجزاؤها مختلفة الفطرة ، متفاضلة الهيئات ، وفيها إنسان هو رئيس ، وأخر تقرب مراتبها من الرئيس ، وفي كل واحد منها هيئة وملكة يفعل بها فعلاً يقتضي به ما هو مقصود ذلك الرئيس ، وهؤلاء هم أولو المراتب الأول ، ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء ، وهؤلاء هم في المرتبة الثانية ، ودون هؤلاء أيضاً من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء ، ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهي إلى أخر يفعلون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أفعالهم على حسب أغراضهم، فيكون هؤلاء هم الذين يخدمون ولا يُخدمون، ويكونون في أدنى المراتب » (المدينة الفاضلة ص ٧٩) فنسبة الرئيس إلى المدينة كنسبة القلب إلى البدن ، ولا فرق بين نظام البدن ونظام المجتمع إلا في شيء واحد وهو « أن أعضاء البدن طبيعية ، والهيئات التي لها قوى طبيعية ، وأجزاء المدينة وإن كانوا طبيعيين فإن الهيئات والملكات التي يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية بل إرادية » (المدينة الفاضلة ، ص ٨٠) . إن الأفعال الإدارية أكثر تعقيداً من الأفعال الطبيعية ، فما بالك إذا كان رئيس المدينة لا يستطيع أن يدبر أمر كل جزء من أجزائها إلا بالقياس إلى جملة المدينة وإلى كل جزء من أجزائها . إن الطبيب المداوي يعالج كل عضو مريض بحسب قياسه إلى جملة البدن وإلى الأعضاء المجاورة له والمرتبطة به ، وكذلك رئيس المدينة فإنه إذا أراد أن يعم الخير مدينته وجب عليه أن يدبر شؤونها بالقياس إلى جملتها وإلى كل جزء من أجزائها . إن الفساد الذي يصيب أحد أعضاء البدن ينتقل إلى الأعضاء المرتبطة به ، ويؤثر في صحة البدن كله ، وكذلك الفساد الذي يصيب أحد أعضاء المدينة فإنه كثيراً ما يمتد إلى غيره من الأعضاء . ويختلف خطر هذا الفساد باختلاف مرتبة كل عضو ، فإذا كان العضو الفاسد رئيس المدينة أدى فساده إلى فساد كل شيء ، فما ظنك إذا كان الفرد لا يستطيع أن يبلغ أفضل كمالاته إلا بالتعاون مع أبناء جنسه . إن فساد العضو الرئيس يفسد نظام الخير في المجتمع ويمنع الأفراد من القيام بواجباتهم على الوجه الأكمل.

٧ ــ لا يُنال الخير الأفضل والكمال الأقصى إلا في الاجتماعات الكاملة

إذا كان الاجتماع الانساني ضرورياً كما يقول الفارابي وغيره من الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين فمردّ ذلك إلى أن الانسان عاجز عن حفظ بقائه بنفسه،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

محتاج إلى التعاون مع أبناء جنسه على الأشياء التي يبلغ بها كماله ، وينال بها سعادته . قال الفارابي : « وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج في قوامه ، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته ، إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها وحده ، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه ، وكل واحد من كل واحد بهذه الحال ، فلذلك لا يمكن أن يكون الانسان ينال الكمال الذي لأجله جعلت له الفطرة الطبيعية إلا باجتماع جماعات كثيرة متعاونين ، يقوم كل واحد لكل واحد ببعض مايحتاج إليه في قوامه ، فيجتمع مما تقوم به جملة الجماعة لكل واحد جميع مايحتاج إليه في قوامه وفي أن يبلغ الكمال » (المدينة الفاضلة ص ٧٧) ، فمن الخير إذن للناس إذا أرادوا بلوغ الكمال والسعادة أن يعيشوا مجتمعين لامنفردين ،وهذا الكمال لاينال إلا في الاجتماعات الانسانية الكاملة وهي ثلاث : العظمى ، وهي المعمورة كلها ، والوسطى وهي الامة ، والصغرى وهي المدينة . « والخير الأفضل والكمال الأقصى إنما ينال أولاً بالمدينة لا بالاجتماع الذي هو أنقص منها » (المدينة الفاضلة ص ٧٨) كالاجتماع في القرية ، أو الاجتماع في المحلة ، أو الاجتماع في السكة أو في المنزل . ولما كان الاجتماع الأصغر يخدم الاجتماع الأكبر كانت القرية خادمة للمدينة ، والمدينة خادمة للأمة ، والأمة خادمة للمعمورة ، وإذا كانت المدينة الفاضلة هي المدينة التي « يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة » (المدينة الفاضلة ، ص ٧٨) فإنّ الأمة الفاضلة هي التي تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة ، وكذلك المعمورة الفاضلة ، فهي لا تبلغ غايتها من الكمال إلا إذا تعاونت جميع الأمم التابعة لها على ما تنال به سعادة الكل . إن السعادة غاية الاجتماعات الانسانية ، فالمدينة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا تكون سعيدة إلا إذا كانت أجزاؤها متعاونة ومتحدة ، وكذلك الأمة أو المعمورة فإنّ سعادتها رهن بتعاون أجزائها ، فسعادة الكل في سعادة الأجزاء ، وسعادة الأجزاء في سعادة الكل ، ولكن الخير الذي يناله الانسان في المدينة أو في الأمة أقل قيمة من الخير الذي يناله في المعمورة الانسانية ، الأول خير جزئي محدود ، والثاني خير كلي غير محدود ، وأكمل الاجتماعات الانسانية اجتماعٌ يضم جميع أمم الأرض ، وأفضل دولة تنال بها السعادة هي الدولة الكبرى التي لا فضل فيها لجماعة على أخرى إلا بما تتصف به من مكارم الأخلاق ، وهذا كله مستمد من تعاليم الدين الإسلامي الذي يوجب على جميع أمم الأرض أن تتحد بالحق ، وأن تؤلف جماعة واحدة تؤمن بإله واحد .

وسواء أكان رئيس المدينة الفاضلة نبياً يوحى إليه ، أم فيلسوفاً تشرق عليه المعقولات من العقل الفعّال ، فإن أهل مدينته لا يبلغون السعادة إلاّ إذا عملوا بإرشاده وتعليمه، إن من شرط الاجتماع الانساني الكامل أن يكون نظامه إلهياً أو عقلياً ، فاذا كان نظامه الهياً كان رئيسه نبياً ، وإذا كان نظامه عقلياً كان رئيسه حكيماً يدبر أموره وفقاً لأحكام العقل، ورؤساء المدن الفاضلة الذين يتوالون في الأزمنة المختلفة واحداً بعد آخر ، كلهم كنفس واحدة ، وكأنهم ملك واحد يبقى الزمان كله ، وكذلك إن اتفق منهم جماعة في وقت واحد ، إما في مدينة واحدة وإما في مدن كثيرة ، فإن جماعتهم كملك واحد ، ونفوسهم كنفس واحدة » (المدينة الفاضلة ص ٩٢-٩٣) وهذا يصدق على أهل كل مرتبة من مراتب المدينة الفاضلة ، لأنهم متى توالوا في الأزمنة المختلفة كانوا « كنفس واحدة تبقى الزمان كله ، وكذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن كان في وقت واحد جماعة من أهل مرتبة واحدة وكانوا في مدينة واحدة أو مدن كثيرة فإن نفوسهم كنفس واحدة » (المصدر نفسه ، ص ٩٣) .

فأنت ترى أن رغبة الفارابي في التوحيد هي التي دفعته إلى القول ان رؤساء المدينة الفاضلة الذين يتوالون في الأزمنة المختلفة يجب أن يكونوا كنفس واحدة . وإذا انقسم الحكم بين عدة رؤساء في الزمان الواحد لعدم استيفاء الواحد منهم جميع شروط الرئاسة وجب أن يكونوا كلهم كنفس واحدة ، وعلى ذلك فالمدينة أو الأمة لا تكون سعيدة إلا إذا كان ملوكها أو رؤساؤها من أولهم إلى آخرهم متوافقين في طريقة الحكم ، وإذا جاء زمان لم يكن فيه رئيس تجتمع فيه صفات الرئاسة كلها وجب توسيد الحكم إلى عدة رؤساء يكمل بعضهم بعضاً . ومعنى ذلك أن الفارابي على على رغبته في التوحيد لا يمنع تعدد الحكام شريطة أن يكونوا جميعاً كنفس واحدة يطبقون شريعة واحدة ، فدولته إذن ليست دولة استبدادية ، وإنما هي دولة اونوقراطية مقيدة بالقانون الالهي أو العقلي .

إن في المدينة الفاضلة أشياء مشتركة بين جميع أفرادها يعلمونها ويفعلونها ، وأشياء أخر من علم وعمل تخص كل عضو من أعضائها أو كل مرتبة من مراتبها . وليس في وسع أحد أن يبلغ السعادة إلا إذا جمع الأشياء المشتركة التي له ولغيره معاً إلى الأشياء الخاصة به أو بمرتبته . دع أن الأشياء التي يفعلها كل واحد من أهل المدينة الفاضلة تكسبه هيئات نفسية تقوى بالتكرار وتتحسن بالمرانة ، كصناعة الكتابة فإنها لا تصبح ملكة أو عادة راسخة إلا بالممارسة ، وهذا شأن جميع الفضائل ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إنها عادات ترسخ بالتكرار ، وتقوى بالارادة ، وهذا وحده كاف للدلالة على أن أعضاء المدينة الفاضلة لا يختلفون بفطرهم وطباعهم فحسب بل يختلفون كذلك باختلاف عاداتهم المكتسبة و « من ظن أن من الأخلاق ما هي طبيعية بالحقيقة لا يمكن زوالها » فقد ظن ظناً كاذباً . (كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين افلاطون وأرسطو ، ص ١٩ ، طبعة ليدن ١٨٩٠) .

٨ ـ نظام الخير في المدينة الفاضلة كنظام الخير في العالم

إن نظام المدينة الفاضلة عند الفارابي كنظام دولة أهل الخير التي تكلم عليها اخوان الصفاء ، فهؤلاء أرادوا أن يبنوا مدينة روحانية فاضلة شريفة يكون أهلها أخياراً فضلاء ، أبراراً رحماء ، لهم سنن كريمة يتعاملون بها فيما بينهم ، ومذهب واحد يتفقون عليه (الرسالة الجامعة ، الجزء ٢ ، ص : ٣٧٢ ـ ٣٧٣ من طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق) ، والفارابي أراد أن يبني مدينة فاضلة يرأسها حكيم إلهي أو نبي صادق يرشد أهلها إلى الخير ويهديهم إلى صالح الأعمال الموصلة إلى السعادة . وكما أن مدينة اخوان الصفا ليست في الأرض ولا على وجه البحر ولا معلقة في الهواء ، فكذلك مدينة الفارابي ليست مدينة واقعية محددة المكان والزمان ، وإنما هي مدينة مثالية بعيدة عن شروط الحياة الواقعية وتقلباتها بُعد السماء عن الأرض ، فربما كانت هذه المدينة المثالية مدينة « السابع » صاحب الناموس الأكبر الذي ينتظره اخوان الصفا ، أو ربما كانت مدينة المهدي أو الإمام المنتظر الذي يجيء في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلاً ، فالمدينة الفاضلة ليست اذن مدينة الحاضر أو مدينة الماضي ، وإنما هي مدينة المستقبل . إن المدن الحقيقية التي ظهرت في التاريخ هي المدن الجاهلة ، والمدن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفاسقة ، والمدن المتبدلة ، والمدن الضالة ، وإذا كانت هذه المدن قد ملأت الأرض جوراً وفساداً فمردّ ذلك إلى جهل أهلها لشروط السعادة أو لتقصيرهم في العمل بهذه الشروط ، أو لتبديلهم صورتها وحقيقتها ، أو لضلالهم في جميع آرائهم واعتقاداتهم . وليس من أغراض هذا المقال تفصيل القول في صفات هذه المدن ، ولكن الغرض منه توضيح مثالية المدينة الفاضلة ، فهي مدينة الحكماء ، أو مدينة الروحانيين الذين تسري القوة الالهية فيهم سريان العقل في المعقولات ، أو سريان الروح في البدن ، وهي وإن لم تتحقق في الماضي على صورة واحدة فإنها تتميز عن المدن الحقيقية بكون رئيسها في أعلى المراتب الإنسانية ، وبكون أهلها أخياراً سعداء وأبراراً حكماء يؤمون سعادة واحدة بعينها ، ومقاصد واحدة بعينها ، وينسجون على منوال رئيسهم في الجمع بين العلم الصحيح والعمل الصالح .

أما العلم الصحيح فيقوم على معرفة السبب الأول وصفاته ، ومعرفة العقول المفارقة وجواهرها ، إلى أن تنتهي إلى العقل الفعال . ثم معرفة الأفلاك وما تحتها من الأجسام الطبيعية كيف تكون ، وكيف تفسد ، ثم معرفة الإنسان وكيف تحدث قواه النفسية ، وكيف يفيض العقل الفعّال نوره عليه حتى تحصل المعقولات الأولى والإرادة والاختيار ، ثم معرفة الرئيس الأول والرؤساء الذين يجب أن يخلفوه ، ثم معرفة أهل المدينة الفاضلة والمدن المضادة لها ما هي حالهم في الدنيا ، وما هو مصيرهم بعد الموت .

وأما العمل الصالح فيقوم على ممارسة الفضائل المطابقة لنظام الخير ولما يتصل به من أمور العدل والمحبة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحكماء المدينة الفاضلة هم الذين يعرفون هـذه الأشياء بالبرهان ويطبقونها بالفعل ، أما من يليهم من أهل المدينة الفاضلة فانهم لا يعرفونها ولا يطبقونها إلاّ بأخذها عن العلماء ، وأما الباقون من أهل المدينة الفاضلة فإنّهم لا يعرفون هذه الأشياء إلاّ بالمثالات القريبة أو البعيدة التي تحاكيها .

وهذا المنهج العلمي والعملي الذي وضعه الفارابي لأهل مدينته يدل على أن السعادة التي يجب عليهم أن يؤموها ليست صورة وهمية وإنما هي صورة غائية ينبغي لكل فرد أن يعمل على تحقيقها بآرائه وأفعاله فالمثل الأعلى للحياة الإنسانية هو التشبه بالخالق ، والعمل بأوامره ونواهيه ، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يعمل بأوامر الله ونواهيه دائماً فمرد ذلك إلى ما في طبيعته من النقص ، إن المثل الأعلى الذي نطمح بأبصارنا إليه ليس خيالاً كله ، وإنما هو صورة مركبة من عناصر الحياة ، متصلة الجذور بتراب الأرض .

وها هنا حقيقة لا بدّ من الاشارة إليها ، وهي أن نظام المدينة الفاضلة شبيه بنظام الوجود في العالم ، ذلك لأن الخير واحد في جميع أطراف الوجود ، فكما أن لكل موجود من موجودات هذا العالم مرتبة متناسبة مع قسطه من الكمال ، كذلك مرتبة كل عضو من أعضاء المدينة الفاضلة متناسبة مع الكمال الذي يخصه ، كلما كانت مرتبته أعلى كان كماله أعظم ، وكمال الكلّ أعظم من كمال الجزء .

وعلى ذلك فإن نسبة رئيس المدينة الفاضلة إلى دولته كنسبة الله إلى العالم ، لأن حصول المدينة الفاضلة وحصول أجزائها وترتيب أركانها ، كل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك متعلق بارادة رئيسها كتعلق العالم وأجزائه بإرادة الله . قال الفارابي : أن نسبة السبب الأول « إلى سائر الموجودات كنسبة ملك المدينة الفاضلة إلى سائر أجزائها ، فإنّ البريئة من المادة تقرب من الأول ، ودونها الأجسام السماوية ، ودون الأجسام السماوية الأجسام الهيولانية ، وكل هذه تحتذي حذو السبب الأول ، وتؤمه ، وتقتفيه ، ويفعل ذلك كل موجود بحسب قوته ، إلا أنها إنما تقتفي الغرض بمراتب ، وذلك أنّ الأخسّ يقتفي غرض ما فوقه قليلاً ، وذلك يقتفي غرض ما هو فوقه ، وأيضاً كذلك للثالث غرض ما هو فوقه إلى أن تنتهي إلى التي ليس بينها وبين الأول واسطة أصلاً ، فعلى هذا الترتيب تكون الموجودات كلها تقتفي غرض السبب الأول ، فالتي أعطيت كل ما به وجودها من أول الأمر فقد احتذي بها من أول أمرها حذو الأول ومقصده فعادت وصارت في المراتب العالية ، وأما التي لم تعط من أول الأمر كل ما به وجودها فقد أعطيت قوة تتحرك بها نحو ذلك الذي يتوقع نيله ويقتفي في ذلك ما هو غرض الأول ، وكذلك ينبغي أن تكون المدينة الفاضلة ، فإنّ أجزاءها كلها ينبغي أن تحتذي بأفعالها حذو مقصد رئيسها الأول على الترتيب » (المدينة الفاضلة ص ٨٢ - ٨٣) .

فهذه الأقوال تدل على أن العالم عند الفارابي مدينة كبيرة ، وأن المدينة التي هي عالم صغير مختصرة من العالم الكبير ، وبين هذين العالمين مطابقة تامة . فالعالم يفيض من الله ، والمدينة تصدر عن رئيسها ، أما العالم فقد رتبت أجزاؤه بعضها فوق بعض في نظام بديع ، أولى طبقاته بعد السبب الأول طبقة العقول المفارقة ، وهي عشر مراتب أدناها مرتبة العقل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفعال ، وثانية طبقاته طبقة الكرات السماوية ولها تسع مراتب آخرها مرتبة كرة القمر ، ثم يلي ذلك طبقة الأجسام والموجودات التي لدينا ، ولها مراتب كثيرة أخسها مرتبة المادة الأولى ، ويليها في الترتيب صعوداً مرتبة الاستقسات ، ثم مرتبة المعادن ، ثم مرتبة النبات ، ثم مرتبة الحيوان ومرتبة الانسان ، وهذا الترتيب الذي نشهده في بنية العالم الكبير مماثل للترتيب الذي نعانيه في بنية المدينة ، من رئيسها ، وهو مماثل للسبب الأول ، إلى وزرائها وأمرائها ، وهم يشبهون العقول المفارقة ، ثم إلى سائر أركانها الذين يُخدمون ويَخدمون ، ثم إلى أخس أعضائها الذين يخدمون غيرهم ولا يخدمهم أحد .

ومعنى ذلك كله أن نظام الخير في المدينة الفاضلة شبيه بنظام الخير في العالم الكبير ، ولولا رغبة الفارابي في توكيد هذا التشابه بين النظامين لما قسم كتاب المدينة الفاضلة قسمين . أحدهما : وهو الأكبر ، يشتمل على البحث في صفات الله ومراتب الموجودات في العقول المفارقة إلى الأجسام السماوية والأجسام الهيولانية ، والنفس الانسانية وقواها ، حتى إنه ليخيل إلى القارىء عند مطالعة هذا القسم أنه يقرأ كتاباً في الإلهيات لا في الاجتماع الانساني وأنواعه . والآخر : وهو الأصغر ، يشتمل على البحث في المجتمع الإنساني وصفات رئيسه وأنواع مدنه ومراتب أجزائه . لقد قال أفلاطون : « إن الطبيعة متشابهة في جميع أجزائها » (Platon Théétète 5 p, 184) فلا يمكن إذن معرفة الإنسان معرفة حقيقية إلا بعد معرفة العالم ، وهذا ما ذهب إليه الفارابي وعمل به في كتاب المدينة الفاضلة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٩ ـ مشكلة وجود الشر

نحن نعلم أن الله عند الفارابي خير محض ، وعقل محض ، وأنه من جهة ما هو واجب الوجود ، بريء من جميع أنحاء النقص ، لا يشوبه عدم ، منه تفيض سائر الموجودات ، وإليه ينتهي كل شيء . وهو الحق الذي لا وجود أكمل من وجوده ، والواحد الذي لا علة له ، ولا شريك له، ولا ضدّ له ، وهو حكيم وحيّ ، عالم بكل شيء وقادر على كل شيء ، لا يدخل في أفعاله خلل البتة ، ولا يلحقه عجز ولا تقصير ولكل موجود من الموجودات الصادرة عنه مرتبته وقسطه من الوجود ، فإذا وجد في الأشياء خلل أو تشويه كان ذلك لعجزها عن قبول النظام التام ، لأن الله الكامل الوجود يفيض الخير والكمال على جميع موجودات العالم بالعدل، فإذا كان أحد الموجودات لا يقبل ما يفيض عليه من الخير لم يكن ذلك لتقصير في الجود الإلهي ، بل لعجز ذلك الموجود عن بلوغ الكمال الذي أعدّ له بحسب طبيعته . والمقصود ببلوغ الكمال حصول الشيء على كل ما يتم به وجوده ، فإذا بلغ هذا الكمال حصل على الخير المتناسب معه ، وإذا لم يبلغه عرض له عارض من الشر . فالشر إذن هو عجز الموجود عن بلوغ الكمال الخاص بنوعه ، أو التخلف عن اللحوق بالخير المتقدم عليه ، ومتى قبل العالم ما يفيض عليه من الخير والجود كان خيراً كله . فإن الله تعالى خير كلي وجود علوي ؛ والخير لا يصنع إلا الخير ، ولذلك قيل إن الشر لا أصل له في الإبداع من جهة المبدع ، وإن المخلوق ليس معاناً على فعل الشر ، « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » (قرآن كريم ، ٤/٧٨) .

على أن للشر ، باعتباره عدم كمال الوجود ، أنواعاً كثيرة ، فيقال شر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لنقصان الشيء عن كماله ، ويقال شر للألم ، ويقال شر للجهل ، ويقال شر للأفعال القبيحة . فالشر إذن هو العدم ، والشر المطلق هو العدم المطلق . وسواء أقلت إن الشر نقص في الوجود أو عجز عن بلوغ الكمال، أم قلت إنه ألم أو جهل أو تقصير ، فإن أمراً واحداً لا شك فيه ، وهو أن الشر موجود في هذا العالم ، لا سبيل إلى إنكار وجوده ، إنه ملابس لجميع الأجسام الطبيعية ، وليس بمستنكر أن تحدث في عالم الكون والفساد شرور لها أسباب قريبة أو بعيدة ، فأمور هذا العالم كثيرة ومختلفة « فمنها خير ومنها شر ، ومنها محبوب ومنها مكروه ، ومنها جميل ومنها قبيح ، ومنها نافع ومنها ضار » (الفارابي ، فيما يصح ولا يصح من أحكام النجوم ، بز ، ص ١١٠ من طبعة ليدن ١٨٩٠) ، فإن اعتبرت عالم الربوبية وجدته بعيداً عن الشر ، وإن اعتبرت عالم الخلق وجدت أمارات الخير وأمارات الشر متجاورة فيه ، إلا أن الأمارات الأولى أكثر من الأمارات الثانية ، ولا وجود للشر في أشياء هذا العالم إلا على سبيل العرض ، لا على سبيل الذات ، هذا الذي عبر عنه ابن سينا بقوله : « إن الخير مقتضى بالذات والشر مقتضى بالعرض » (ابن سينا ، النجاة ، ص ٤٧٤) . إن الشر أقل ذيوعاً من الخير ، وهو ذو طبيعة سلبية ، أما الخير فطبيعته إيجابية ، مثال ذلك أن في النار خيرات كثيرة ، ومنافع دائمة ولكنها قد تصيب ثوب فقير معدم فتحرقه ، وهذا شر ، فهل تُترك الخيرات الكثيرة والمنافع الدائمة التي تنشأ عن النار ، لأجل شرور عرضية في أمور إنسانية جزئية غير دائمة . ولو كان شر النار أكثر من خيرها لامتنع وجودها ، لأن الخير كمال الوجود ، والشر عدم كمال الوجود ، والله القادر على كل شيء لمّا خلق النار وغيرها من الجواهر جعل لكل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جوهر طبيعة تخصه ، فمن طبيعة النار أن تنشر الحرارة ، وأن تذيب المعادن الصلبة وأن تحلل الأجسام المركبة ، ومن طبيعتها أيضاً أن تحرق، فإذا صادفت ثوب فقير فأحرقته ، كان هذا الشر الجزئي الحادث عنها مقتضى بالعرض لا بالذات .

قال الفارابي : « وعناية الله محيطة بجميع الأشياء ، ومتصلة بكل أحد ، فكل كائن فبقضائه وقدره ، والشرور أيضاً بقدره وقضائه ، لأن الشرور على سبيل التبع للأشياء التي لا بد لها من الشر ، والشرور واصلة إلى الكائنات الفاسدات ، وتلك الشرور محمودة على طريق العرض ، إذ لو لم تكن تلك الشرور لم تكن تلك الخيرات الكثيرة الدائمة ، وإن فات الخير الكثير الذي يصل إلى ذلك الشيء لأجل اليسير من الشر الذي لا بدّ منه كان الشر حينئذ أكثر » (عيون المسائل ، المسألة ٢٢ ، من طبعة ليدن) . إن جميع الاشياء المشمولة بعناية الله مصطبغة بصبغة الهية لأن علم الله بالشيء يوجب صدور ذلك الشيء عنه لا على سبيل الطبع ولا على سبيل القصد ، بل على سبيل علمه بذاته وبالاشياء ، قال الفارابي: « ووجود الأشياء عنه لا عن جهة قصد منه يشبه قصودنا ، ولا صدور الأشياء عنه على سبيل الطبع من دون أن يكون له معرفة ورضاء بصدورها وحصولها ، وإنما ظهور الأشياء عنه لكونه عالماً بذاته ، وأنه مبدأ لنظام الخير في الوجود على ما يجب أن يكون عليه ، فإذن علمه علة لوجود الشيء الذي يعلمه ، وعلمه للأشياء ليس بعلم زماني » (عيون المسائل ، المسألة ٦ ، ص ٥٨ من طبعة ليدن) . فإذا كان علم الله بالشيء يوجب حدوث ذلك الشيء ، وكان كل كائن من خير أو شر لا يخرج من العدم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إلى الوجود إلا بقضاء الله وقدره كان علينا أن نسأل : لماذا وجد الشر في هذا العالم ، من أين كان ، وكيف يكون ، ولم كان ، وما هي الحكمة في وجوده ؟ فإذا قال الفارابي : « إن كل كائن من خير وشر يستند إلى الأسباب المنبعثة عن الإرادة الأزلية » (فصوص الحكم ، ٤٩) قلنا: لماذا اقتضت الإرادة الأزلية أن يكون هناك شر ، إن الله خير محض ، والخير لا يصنع إلا الخير ، فكيف تفجر الوجود عن الشر ، وهو ذو صبغة إلهية ، وإذا قال أيضاً إن وجود الشر في العالم لا يتعلق بإرادة الله مباشرة بل يتعلق بأسباب ثانوية ، لعدم قبول الشيء للجود الالهي لنقص في طبيعته قلنا : لماذا اقتضت إرادة الله الازلية أن يكون في طبائع الأشياء نقص ؟ . إن إرادة الله متقدمة على كل كائن تقدماً ذاتياً ، لأنك تقول : « أراد الله فكان الشيء ، ولا تقول كان الشيء فأراد الله » (فصوص الحكم ، ٥٤) ، فلماذا اقتضت حكمة الله أن يكون هناك أسباب تبعث على وجود الشر ، لماذا لا يكون الوجود خيراً كله ؟.

قد يقال في الإجابة عن هذه الأسئلة إن وجود الله أكمل الوجود ، وكمال الموجودات الصادرة عنه لا يمكن أن يكون مساوياً لكماله ، ولو صح ذلك لأمكن أن يكون هناك إلهان أو أكثر ، وهذا في نظر الفارابي المؤمن بالتوحيد أمر باطل وشنيع جداً . وإذا كان القدر هو وضع الشيء في المكان اللائق به ، فإن لكل موجود كمالاً متناسباً مع كونه في المكان الذي يحسن كونه فيه ، إن للموجودات نظاماً من التأليف والتركيب يجعلها مرتبة في أماكنها ، فالأول لا يكون متأخراً ، والمتأخر لا يكون أولاً ، وإذا تذكرنا الآن ما قاله الفارابي عن ترتيب الموجودات تبين لنا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن العالم محكم التأليف والتنظيم ، لأن العقل الأول أكمل الموجودات وأفضلها وأقربها إلى الله ، ويليه موجود ثانٍ هو أقل كمالاً منه ، ثم الأقل فالأقل ، إلى أن ينتهي هذا الترتيب إلى الانقص . وأفضل الموجودات الفائضة من الله هي التي ليست بأجسام ، ومن بعدها الأجسام السماوية ثم الموجودات الطبيعية التي يضمها عالم الكون والفساد . فالموجودات إذن ثلاثة أقسام : وهي (١) الموجودات المفارقة ، ولها ثلاث مراتب أولاها مرتبة الأول ، وثانيتها مرتبة العقول ، وثالثتها مرتبة العقل الفعّال . (٢) والموجودات الملابسة للأجسام ، ولها ثلاث مراتب وهي : النفس والصورة والمادة (٣) والأجسام ولها ست مراتب ، وهي الأجسام السماوية ، والحيوان الناطق ، والحيوان غير الناطق ، والنبات ، والمعدن ، والاسطقسات .

فأنت ترى أن الموجودات رتبت بعضها فوق بعض في نظام هندسي دقيق ، وهي تؤلف سلسلة متصلة الحلقات تؤم خالقها كما تؤم أعضاء المدينة رئيسها ، فطبيعة هذا النمط من الوجود توجب أن تكون موجوداته متفاضلة ومتفاوتة ، فما كان وجوده أكمل كان أفضل وأجمل وما كان وجوده أخسّ كان أحقر وأرذل . إن أكمل الموجودات أعلاها مرتبة ، ثم يتلوه ما هو أنقص قليلاً ، ثم لا يزال بعد ذلك يتلو الأنقص فالأنقص إلى أن ينتهي إلى الوجود الذي إن تخطى عنه إلى ما دونه تخطى إلى مالا يمكن أن يوجد أصلاً ، فتنقطع الموجودات عن الوجود » (المدينة الفاضلة ص ٢٠) .

فلا تسأل إذن لماذا وجد الشر ، لأن الشر عند الفارابي نقص في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الوجود ، وما دام الله تعالى هو الموجود الكامل على الاطلاق فإن الموجودات الصادرة عنه لا يمكن أن تكون كاملة مثله . الكامل المطلق واحد لا يتعدد ، وكل ما خلاه من الموجودات مشتمل على شيء من النقص . وإذا سألتني الآن لماذا لا يكون الوجود كمالاً كله أو خيراً كله أجبتك بلسان ابن سينا أن هذا ممكن ، ولكن في غير هذا النمط من الوجود .

ومع ذلك فإن الفارابي يفرق بين نوعين من أمور العالم ، أحدهما يشتمل على أمور تحدث عن أسباب طبيعية كحدوث الحرارة عن النار ، والآخر يشتمل على أمور اتفاقية ليست لها أسباب معلومة كموت انسان أو حياته عند طلوع الشمس أو غروبها . قال : « فكل أمر له سبب معلوم فإنه صُعدٌ لأن يعلم ويضبط ويوقف عليه . وكل أمر هو من الأمور الاتفاقية فإنه لا سبيل إلى أن يعلم ويضبط ويوقف عليه ألبتة » (فيما يصح ولا يصح من أحكام النجوم ، الفقرة (د) ، ص ١٠٦ من طبعة ليدن) . فإذا أنعمت النظر في الأمور التي لها أسباب طبيعية تحدث عنها لم تجد فيها شراً لأن من طبيعة النار أن تنشر الحرارة ومن طبيعة الجسم أن يسقط إلى الأرض ، أما الأمور الاتفاقية التي ليس لها أسباب معلومة فانك لا تستطيع أن تضبط حدوثها ، فلا يمكنك أن تعلم أين تصادف النار ثوب فقير معدم فتحرقه ولا متى يصادف الحجر الساقط رأس انسان ماشٍ في الطريق فيجرحه ، وفي هـــذا كله ، كما ترى ، شر ، إلا أنه شر عرضي ، لا شر ذاتي . وسواء أكانت أمور العالم أموراً حتمية أم أموراً اتفاقية فإن الشر فيها لا يكون شراً إلا بالنسبة إلى الإنسان ، لقد أوجبت حكمة الله أن يكون في عالم الإنسان خير وشر ليبتلي بهما « ونبلوكم بالشر والخير فتنة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإلينا ترجعون » (قرآن كريم ٢١/٣٥) وهذا يصدق على الأمور الاتفاقية لا على الأمور التي لها أسباب طبيعية ضرورية « ولو لم يكن في العالم أمور اتفاقية ليست لها أسباب معلومة لارتفع الخوف والرجاء ، وإذا ارتفعا لم يوجد في الأمور الإنسانية نظام البتة لا في الشرعيات ولا في السياسيات ، لأنه لولا الخوف والرجاء لما اكتسب أحد شيئاً لغده ولما أطاع مرؤوس رئيسه ، ولما غني رئيس بمرؤوسه ، ولما أحسن أحد إلى غيره ، ولما أطيع الله ، ولما قدم معروف ، إذ الذي يعلم أن جميع ما هو كائن في غد لا محالة على ما سيكون ثم سعى سعياً فهو عابث أحمق يتكلم ما يعلم أنه لا ينتفع به » (فيما يصح ولا يصح من أحكام النجوم ، الفقرة ٥) . إن الوجود الكلي الثابت على حال واحدة لا يشتمل بنفسه إلا على الخير ، أما الوجود المتغير الجامع بين الاضداد فهو مشتمل على الخير والشر معاً . فلا خير في هذا العالم بلا شر ، ولا شر بلا خير ، وفاعل الخير خير كله وفاعل الشر شر كله ، ومن الخير ابطال الشر ، ولو كان شر شيء من الأشياء كما بينا آنفاً أكثر من خيره لبطل وجود ذلك الشيء .

إن الله تعالى يعلم كل شيء علماً غير زماني ، وعقله لذاته التي هي المبدأ لنظام الخير في الوجود هو السبب في تغلب الخير على الشر ، لأن الخير يدعو إلى البقاء ، والشر يدعو إلى الفناء .

وكما أن الله تعالى يحفظ نظام الخير في الوجود لكونه علة غائية له ، لا علة فاعلة فحسب ، فكذلك العقول المفارقة فهي سبب ثان لوجود الخير وكل واحد من هذه العقول ، كما يقول الفارابي ، « عالم بنظام الخير الذي يجب أن يظهر منه » (عيون المسائل ، رقم ١٠ ، ص ٥٩ من طبعة ليدن) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والانسان كما قلنا سابقاً ليس معاناً على الشر ، ولكنه عندما يستعمل عقله لا يستطيع أن يختار إلا الخير فإذا فعله أثيب عليه ، وكل عاقل بما كسبت نفسه رهين ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، وما يفعل الانسان من خير يعلمه الله ، وعالم الكون والفساد الذي نعيش فيه عالم بلاء يتزود الانسان فيه بصالح الأعمال ، وخير الزاد فعل الخير . فالقوى والملكات والأفعال الارادية التي تعوق الانسان عن بلوغ السعادة هي الشرور الانسانية ، والقوى والملكات والأفعال الارادية التي تعين الانسان على بلوغ السعادة هي الخيرات الانسانية (في جواب مسائل سئل عنها ص ٩٨ من طبعة ليدن) .

١٠ – خاتمة

يمكننا الآن بعد الذي قدمناه من شرح فكرة الخير عند الفارابي أن نجمل هذا الشرح بقولنا إن الخير عنده نوعان : خير وجودي ، وخير انساني . فالخير الوجودي هو الخير المطلق ، وقد عرفناه بقولنا إنه كمال الوجود والخير الانساني هو الخير النسبي ، ويطلق على القوى والملكات والأفعال التي تعين على حصول الغرض المقصود بوجود الانسان في العالم . أما الشر فهو كذلك نوعان : شر مطلق وقد عرفناه بقولنا إنه العدم المطلق أو عدم كمال الوجود على الاطلاق ، وشر نسبي وهو مجموع القوى والملكات التي تعوق عن حصول الغرض المقصود بوجود الانسان في العالم .

وكما أن الخير قد يكون خيراً بالطبع أو خيراً بالارادة ، فكذلك الشر ، فهما – أعني الشر والخير – أمران متضادان وخالقهما واحد . وقدرة أشخاص الانسان على فعل الخير وبلوغ السعادة متفاوتة لتفاوت مراتبهم في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المجتمع ، فمن كان في أعلى المراتب كرئيس المدينة اجتمعت فيه خصال الخير كلها ، ومن كان في أدنى المراتب وأخسها كان أقل أعضاء المدينة الفاضلة اتصافاً بصفات الخير ، ولا يُنال الخير الأفضل والكمال الأقصى إلا في الاجتماعات الانسانية الكاملة ، أعني المعمورة أو الأمة أو المدينة ، ونظام الخير في المدينة الفاضلة شبيه بنظام الخير في العالم ، وعناية الله المحيطة بكل شيء جعلت الخير في الوجود غالباً على الشر ، الخير ايجابي والشر سلبي ، ولا أصل للشر في الابداع .

نعم إن كل شيء في العالم داخل في قدر الله وقضائه ، وهما خير لا شر ، لأن الله خير محض ، والخير كما قلنا لا يصنع إلا الخير ، فإذا دخل الشر في القضاء الإلهي كان دخوله فيه ناشئاً عن عجز الموجود عن قبول الكمال الذي أعدّ له ، أو عن عجزه عن اللحوق بالخير المتقدم عليه ، أما الانسان فإن نفسه لاتبلغ السعادة ولا تنال ما يفيض عليها من الخير إلا إذا كان شوقها إلى مرتبة العقل أكثر من شوقها إلى مرتبة الطبيعة . إذا أشرق العقل الفعال على النفس الانسانية بفضائله وخيراته صارت خيراً كلها ، وإذا لم تستطع النفس أن تقهر شهواتها قهراً تاماً ، ولا أن تختار طريق الفضيلة صارت شراً كلها . إن حسن الاختيار متوقف على حسن استعمال العقل ، وعلى ذلك فإن الانسان لايتحرر من قيود المادة ولا من أغلال الضلال إلا بعقله ، فإذا استولت عليه الطبيعة صار شقياً ، وإذا بلغ درجة العقل المحض أو العقل المستفاد صار حراً وسعيداً .

لاشك أن هذه الآراء ذات اتجاه ديني وإن كانت عناصرها الموضوعية مستمدة من فلاسفة اليونان . ومع أن الفارابي القائل بقضاء الله وقدره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أميل إلى مذهب الجبر منه إلى مذهب القائلين بحرية الاختيار فإن قوله بقدرة العقل على استجلاء الحقيقة ، وقوله إن الخير في الوجود أكثر من الشر يدلان على أنه كان كثير التفاؤل ، مؤمناً بالخير ، ومعتقداً أن في وسع الانسان أن يتغلب على الشر بإرادته العاقلة كما أن في وسع الشرير إذا أراد ، أن ينتقل إلى الخير ، وأن يصبح متناهياً في الخيرية حتى لا يبقى للشر أثر عنده ألبتة ، إن القول بقدرة الانسان على الاختيار لا يتعارض مع القول بالإرادة الأزلية التي حددت مصير كل شيء ، لأن الاختيار مبني على أسباب عقلية ، فإذا وجدت هذه الأسباب اضطرت الارادة إلى اتباعها ، وهذا كله مقدر في علم الله .

قال الفارابي : « فإن ظنّ ظان أنه يفعل مايريد ويختار ما يشاء استكشف عن اختياره هل هو حادث فيه بعد ما لم يكن أو غير حادث فيه ، فإن كان غير حادث فيه لزم أن يصحبه ذلك الاختيار منذ أول وجوده ، ويلزم أن يكون مطبوعاً على ذلك الاختيار لاينفك عنه ، ولزم القول إن اختياره مقتضى فيه من غيره ، وإن كان حادثاً ـ ولكل حادث سبب محدث ـ فيكون اختياره عن سبب اقتضاه ، ومحدث أحدثه ، فإما أن يكون هو أو غيره ، فإن كان هو بنفسه فلا يخلو إما أن يكون إيجاده للاختيار بالاختيار ، وهذا يتسلسل إلى غير النهاية ، أو يكون وجود الاختيار فيه لا بالاختيار فيكون محمولاً على ذلك الاختيار من غيره وينتهي إلى الأسباب الخارجة عنه التي ليست باختياره ، فينتهي إلى الاختيار الأزلي الذي أوجب ترتيب الكل على ما هو عليه ... فتبيّن من هذا أن كل كائن من خير وشر يستند إلى الأسباب المنبعثة عن الإرادة الأزلية » (فصوص الحكم ، الفقرة ٤٩ ، ص ٧٨ - ٧٩ من طبعة ليدن) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجملة القول أن كل كائن فهو بقضاء الله وقدره ، وأن الأسباب العقلية التي يبنى عليها الاختيار تنتهي إلى الاختيار الأزلي، ومع ذلك فإن الاختيار لا يكون شوقاً عن إحساس أو تخيل بل يكون شوقاً عن نطق ، وهو المسمّى بالإرادة العاقلة ، فإذا تشوق الانسان فيعمل أمر ما وجب عليه قبل كل شيء أن يحرر نفسه من تأثير الاحساس والشهوة والتخيل ، حتى إذا تم له ذلك ساقه الفعل إلى غايته ، وفي ذلك كما ترون شيء من الاختيار والاضطرار معاً لأن كل اختيار يرجع في النهاية إلى الأسباب الأزلية .

وإذا كان الله مبدأ نظام الخير في الوجود على ما يجب أن يكون عليه فإن عنايته بالعالم توجب عليه أن يكون عادلاً ، فلا يكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا كان الانسان ذا عقل وجب عليه أن يحكم عقله في كل شيء ، فلا يختار من الأشياء إلا ما هو متفق مع إرادة الله الأزلية . وفي هذا كسب له ، إلا أنه ليس مطلقاً . وإذا كان بعض علماء الكلام يقولون : إن الخير ما أمر الله به ، والشر ما نهى عنه ، فإن الفارابي يرى مع المعتزلة أن الواجبات عقلية ، وأن الانسان يستطيع أن يعرف الخير بعقله ، وأن يتشوقه بإرادته ، وفي هذا الرأي ما يوهم بأن هناك حرية إلا أن هذه الحرية المقيدة بالأسباب العقلية لا تجعل الانسان ملكاً مطلقاً يأمر بما يشاء وينهى عما يشاء ، بل تجعله عضواً في مدينة الله يَخدم ويُخدم ، ويعمل بما يوجبه عقله المشرق بالنور الإلهي .

جميل صليبا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net